الكتابة التاريخية عند رجالات الحركة الإصلاحية الجزائرية وأهدافها

أ.د. براهيم لونيسي
جامعة سيدي بلعباس

يكتسي التاريخ أهمية بالغة ، ويلعب دورا كبيرا في بناء الشعوب والأمم ، فالذي لا يدرس الماضي لا يمكنه أن يفهم الحاضر ، ومن ثمة فهو لا يستطيع بناء المستقبل ، لأن عملية البناء والتشييد تعتمد أساسا على الواقع الحي ، ويقول الفيلسوف الألماني فيخته عن التاريخ بأنه " الأسمنت الروحي لتقوية وحدة الأمة والدفع بها إلى الأمام في ظروف السلم والحرب جسما واحدا بروحه كاملة غير منقوصة ولا مهزومة . » .

والتاريخ يعد من العناصر الحساسة التي تلعب دورا هاما في إثارة الشعور الوطني ، وتنمية الوعي القومي في أوساط الجماهير الشعبية ، مهما كانت درجتها من الثقافة والعلم ، وكل رجال التربية يقرون بأن تدريس التاريخ لا يعني في حقيقة الأمر تعليم الماضي بل يعني تكوين الشعور الوطني.

و النخبة المثقفة الجزائرية تفطنت إلى هذا الدور منذ بدايات القرن العشرين ، وخاصة عند رجالات الحركة الإصلاحية التي بدأت نواتها الأولى تتشكل مع بدايات القرن العشرين حيث ظهرت مجموعة من الكتب التاريخية التراثية على الساحة الثقافية الجزائرية ، وان كانت هذه الكتب ظهرت بتشجيع من الوالي العام الفرنسي شارل جونار الذي جاء بسياسة أهلية واضحة خلال فترة حكمه 1903-1913 ، تهدف إلى جلب الطبقة المثقفة بالثقافة العربية الإسلامية إلى صف السلطات الإستعمارية.[1]

وشارل جونار لم يمكن يهدف من هذه السياسة إلى دفع هؤلاء المثقفين إلى إثارة الشعور الوطني لدى الجزائريين ، ولكن هذا لا يمعنا من القول أن هذه السياسة ساهمة بفعالية في وضع الأسس الأولى للحركة الإصلاحية الجزائرية التي اتخذت لها بعدا واتجاها خاصا بها بعد سنة 1925 ،والتي تبلورت في ما بعد في ما أصبح يعرف بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931.

وبما أن المهمة التي حملتها الحركة الإصلاحية الجزائرية على عاتقها تتمثل في إصلاح المجتمع الجزائري ، وذلك بمحاربة البدع والخرافات التي أخذت تتفشى في هذا المجتمع ومحاربة كل الدعوات التخريبية ، والتغريبية التي بدأت تظهر في أوساط بعض المثقفين الجزائريين ، خاصة أولئك الذين تلقوا تعليمهم في المدارس الفرنسية وأصبحوا من دعاة الانسلاخ.

كما أنها تحملت مسؤولية المحافظة على الشخصية الجزائرية بكل مقوماتها الثقافية والحضارية والدينية والوطنية ومقاومة السياسة الإستعمارية الرامية إلى القضاء عليها . ولقد رأت هذه الحركة أن الإعتماد على التاريخ الإسلامي العربي عامة والوطن الجزائري خاصة هي من أهم الوسائل للوصول إلى أهدافها.

وهذا هو الذي جعل الشاعر رمضان حمود (1906-1929) يكتب سنة 1927 "إذا جهلت أمة تاريخها فقد جهلت مستقبلها وإذا جهلت مستقبلها فقد أسرت نفسها في يد غيرها" ويقول كذلك "التاريخ محي الأمم وقد يكون قاتلها إذا أشربت

من كأس غيرها". ويقول كذلك في أهمية التاريخ "إذا صح أن الأمم لا تتكون إلا من طينة تاريخها الغابر وان الأمة التي لا تاريخ لها لا تنهض إلا باندماجها في غيرها ، فإن للجزائر العزيزة تاريخا ماجدا وماضيا خطيرا يذكر بكل أجلال وتعظيم.[2]

.

وأهمية التاريخ هذه هي التي جعلت الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة الجزائرية الحديثة يقول في ذلك الخطاب الذي إرتجله في ذكرى البشير صفر بتونس سنة 1937 : "وأنا شخصيا أصرح بان كراريس البشير صفر الصغيرة الحجم الغزيرة العلم هي التي كان لها الفضل في اطلاعي على تاريخ أمتي وقومي والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت بي اليوم لأن أكون جنديا من جنود الجزائر.[3]

وإذا كان التاريخ جعل من الإمام ابن باديس جنديا من جنود الجزائر فإنه هو بدوره أراد أن يكون بالتاريخ جنودا يدافعون عن الجزائر ويعملون على تحريرها لذا نجده في الكثير من الأحيان يستنجد بالتاريخ في دروسه وخطبه ومحاظراته ، بل ونجده يخصص محاظرات كاملة المواضيع تاريخية ومثال على ذلك تلك المحاضرة التي إرتجلها في الاجتماع العام الذي عقدته الجمعية في نادي الترقي سنة 1939 والتي كان موضوعها (العرب في القرآن) [4] ، وفيها دافع على العرب دفاعا رائعا مدحضا كل الصور المشوهة والإدعاءات المغرضة التي غرسها الفكر الاستعماري الإستشراقي في عقول شعبنا مثل قوله أن العرب قوم جهل وأنه لا حضارة لهم وهذا كله من أجل أن يولد حقدا في نفسية هذا الشعب تجاه بقية العرب ، وبالتالي الانسلاخ عن أصوله العربية ، فإبن باديس يرى أنه من الضروري الاهتمام والاعتناء بتاريخ العرب ، ومدنيتهم وكل ما هو متعلق بهم قبل الإسلام ، وذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام ولعناية القرآن بهم ولأخيارهم من الله سبحانه وتعالى لتبليغ آخر رسالاته للبشرية جمعاء ، وهي الرسالة الإسلامية ، ويحاول أن يصحح إحدى المفاهم المغلوطة التي آمن بها الكثير فيقول : "إن العرب مظلومون في التاريخ فإن الناس يعتقدون ويعرفون أن العرب كانوا همجا لا يصلحون لدنيا ولا دين حتى جاء الإسلام فأهتدوا به فأخرجوهم من الظلمات إلى النور". ويقول مصححا هذا الخطأ الفادح الذي ظلم العرب ظلما شديدا ، إن القرآن وحده هو الذي انصف العرب وأن الناس بعد نزول القرآن قصروا في نظرهم إلى التاريخ العربي ونظروا فيه من جهة واحدة فقط بينما كان المفروض أن ينظر هذا التاريخ من جهات متعددة ، ففي العرب نواح تجتبي ونواح تجتنب وجهات تذم وتقبح وجهات يثنى عليها وتمدح ثم يفصل القول بعد ذلك في الحضارات العربية التي نشأت في الجزيرة العربية قبل الإسلام مثل حضارة عاد وثمود وسبأ.

ومن الأدلة الأخرى على مدى اهتمام الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس بالتاريخ ذلك المقال الرائع الذي كتبه سنة 1937 عن كتاب (محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791) لصاحبه المؤرخ أحمد توفيق المدني ، والشيخ ابن باديس في هذا المقال (5) يضم صوته إلى صوت عبد الرحمان صدقي الذي قال" الوطن هو تاريخ الوطن" ، وإلى صوت محمد حسين هيكل الذي قال : " لا حياة لامة إلا بأحياء ماضيها".

ويقول الشيخ الإمام عن توفيق أحمد المدني بأنه ليس كاتبا بليغا ولا مؤرخا حكيما فقط بل انه كان فوق ذلك من خير من بعثوا أوطانا وأحيوا أمما وكأني أخال ابن باديس بهذا الكلام يدعو إلى ضرورة الاهتمام بالتاريخ ويحث المثقفين الجزائريين على ضرورة الكتابة في تاريخ الجزائر حتى يتم أحياء الأمة الجزائرية التي عمل الاستعمار الفرنسي كل ما في وسعه من أجل القضاء عليها كما أنه يدعو كل مسلم جزائري إلى ضرورة قراءة كتاب أحمد توفيق المدني لأنه سيجد فيه الحقيقة الناصعة والزيف الفرنسي الذي كان يزرعه في عقول الجزائريين لأنه سيتعرف من خلال الكتاب على ما كانت عليه الجزائر من القوة والعمران قبل الاحتلال وما أصابها من التخريب والتقتيل أيام الاحتلال.

إن الاهتمام بالتاريخ من طرف الحركة الإصلاحية الجزائرية لم يكن مقتصر فقط على المحاضرات والخطب والمقالات الصحفية ، بل تعدى ذلك إلى ميدان التأليف ، حيث صدرت العديد من الكتب التي تناولت تاريخ الجزائر ، ومن أولى هذه الكتب كتاب "التاريخ الجزائر في القديم والحديث" لصاحبه الشيخ مبارك بن محمد الهلالي الميلي وذلك سنة 1928 ، ومحمد الميلي لم يكتب هذا الكتاب من اجل التسلية بل من أجل تحقيق جملة من الأهداف وأهمها كما هو واضح من العنوان هو اثبات عراقة التاريخ الجزائري وقدمه وبذلك فهو يدحض الادعاءات الفرنسية المفرطة والقائلة بأن الجزائر كانت أرض شاغرة قبل مجيء الاستعمار الفرنسي ، وكذلك حتى يثبت لفرنسا أن تاريخ الجزائر من الفتح الإسلامي حتى سنة 1830 كانت صفحة ناصعة ومشرقة على عكس ما يذهب إليه مؤرخو المدرسة الاستعمارية الذين يطلقون على هذه الفترة اسم العصور المظلمة والغامضة. وفي عمله هذا لم يعتمد على العاطفة بل اعتمد على التحليل العميق ، ولم يكن يكتفي باستجلاء الحقائق واثباتها مجردة ، بل كان يمعن النظر في الأسباب والنتائج ويثبت أحكاما من عصارة فكره وخلاصة رأيه ويقول عنه الشيخ عبد الرحمان الجيلالي في مقالة نشرت في مجلة الثقافة (6) " صبورا دؤوبا على البحث مغال في التحقيق والتدقيق مع مهارة منقطعة النظير في المقابلة بين النصوص وكانت له نظرة صائبة في استجلاء الغوامض وحكم صادق في أسباب الحوادث ونتائجه ومهارة في الترتيب والتبويب مع حسن سبك يجعل التاريخ من السلسلة المفرغة".

وبهذا الأسلوب الرائع كما يصفه الشيخ عبد الرحمان الجيلالي أنجز كتابه في جزئين الأول أصدره سنة 1929 والثاني سنة 1932 ، وهذا الكتاب يكتسي أهمية كبرى ، باعتباره كان تمهيدا لقيام حركة التأليف التاريخي في الجزائر على أيدي جزائريين وطنيين وهذا بعد أن كان التاريخ الجزائري حتى أواخر العشرينيات من القرن العشرين حقلا خصبا للمؤرخين الفرنسيين الذين لاهم لهم سوى خدمة الأغراض الاستعمارية مقتصرين في ذلك على أمرين إما إنكار مطلق للتاريخ الجزائري أو تشويها للصور التي لا يمكن أن تنكر ، وهذا يحقق لهم هدفين هو أن ولادة الوطن الجزائري كانت مع بداية الاحتلال الفرنسي ، وكذلك طمس الأمجاد التي يمكن أن تعزز جانب الجزائريين في مواقفهم البطولية من الاحتلال.

ويقول أبو القاسم سعد الله عن جدية وأهمية هذا الكتاب أنها تظهر في عدة أمور منها المنهج الحديث والتوجيه السياسي واستعمال المصادر العربية ونقدها واستعمال المصادر الأجنبية الفرنسية عن طريق الترجمة واستخدام التقنيات مثل الخرائط والرسوم ، والرد على نظريات المؤرخين الفرنسيين ومناقشة آرائهم دون اظهار التحيز لذاته ونية إلى الابتعاد عن كتب الخرافات وتصديق كل ما جاء في الكتب القديمة (7). ويقول أيضا أن كتاب الميلي ورغم أنه لم يصل إلى الزمن الحاضر فإنه وضع المؤشرات له وذلك بخطابه للشعب وحكمه على الاستعمار الروماني وغيره من الاستعمارات الأجنبية (8).

وبعد ظهور هذا الكتاب في جزئه الأول بفترة وجيزة قام مؤرخ آخر وهو أحمد توفيق المدني بإصدار كتاب تاريخي جغرافي في أن واحد وهو "كتاب الجزائر " وذلك سنة 1931 ، حيث سخر المدني قلمه في هذا الكاتب لأجل خدمة تاريخ وطنه الجزائر الذي كان معرضا للمعاول الفرنسية لتهديمه ، والمدني في مقدمة هذا الكتاب يعالج قضية الفراغ الذهني والتاريخي الذي كان يعاني منه الشباب الجزائري الذي يقسمه إلى قسمين ، قسم ذو ثقافة فرنسية ممزق بين الانجذاب إلى تاريخ فرنسا والنفور من تاريخ الجزائر المشوه، وقسم ذو ثقافة عربية وهي المرجع التاريخي الذي يربطه بماضيه واصلة ، معلنا أن هدفه من تأليف هذا الكتاب في الصفحات الأولى منه : " أنكم ترون كما رأيت أن أبناء العربية في الجزائر يجهلون عن الوطن الجزائري كل شيء ، فكأنهم بذلك يعيشون في ديار غير ديارهم وأرض لم تنبت آبائهم وأجدادهم ، وكأنهم خلقوا على أرض مبتورة الأصل مجهولة النسب ، فاقدة كل مقومات الحياة فهم لا يبحثون عن حوادث أمسها و لايهتمون لحالة يومها ولا يتساءلون عن مستقبل غدها".

ولقد قسم المدني هذا الكتاب إلى أربعة عشر قسما ، حيث عالج في كل قسم موضوعا من الموضوعات التاريخية الخاصة بالجزائر ، وهي إما سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو إدارية ، فالقسم الأول مثلا خصصه لتاريخ الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي ، والثاني تناول فيه تاريخ الجزائر من الاحتلال الفرنسي إلى غاية سنة 1930 ، وتناول في القسم الثالث الحياة العلمية والأدبية للجزائر عبر عصورها التاريخية المختلفة ، مؤكدا بذلك أن الشعب الجزائري ، كان يعرف معنى الأدب والعلم منذ أقدم العصور وفوق كل ذلك أهتم بهما اهتماما بالغا ، مساهما بذلك في صنع الحضارة الإنسانية عبر العصور.

ومما أزاد هذا الكتاب أهمية كونه جاء بعد مرور عام واحد فقط على إحياء الاستعمار الفرنسي للذكرى المئوية لاحتلاله للجزائر ، وكأن أحمد توفيق المدني أراد تنبيه السلطات الاستعمارية إلا أن الأمة الجزائرية رغم مرور قرن على احتلالها وعيشها تحت سلطته وسيطرته إلا أنها ما تزال وفية لهويتها العربية الإسلامية وبأنها لم تصبح فرنسية ولن تصبح أبدا ، ونظرا الأهمية هذا الكتاب وللدور المنتظر له أن يقوم به في أوساط الشعب الجزائري ، استقبل بالترحيب الكبير سواء أداخل الجزائر أوخارجها فيقول صاحبه في مذكراته (9) " كانت البحوث والمقالات التي نشرت حوله كثيرة متباينة ، وكانت الرسائل التي جاءتني عنه طائلة لا أزال احتفظ منها بمجموعة ثرية فيها 533 رسالة أغلبها من البلاد الجزائرية فيها تحبيذ وتمجيد وفيها شبه تقديس".

ونذكر هنا أيضا ذلك الكتاب الذي الفه العلامة الشيخ عبد الرحمان الجيلالي عشية اندلاع الثورة التحريرية تحت عنوان تاريخ الجزائر العام ، الذي صدر في جزئين سنة 1953 وتناول فيه التاريخ الجزائري من أقدم العصور إلى العهد العثماني ، هذا الكتاب الذي أهداه إلى عقبة بن نافع ووجهه إلى الشباب الجزائري وفي هذا رمزية كبيرة جدا تنم عن ربط الماضي الجزائري المشرق بحاضرها الممثل في الشباب وهدف عبد الرحمان الجيلالي من تأليف هذا الكتاب هو أن يقتدي الجيل الجديد بأجدادهم و لا ينغمسوا في الحضارة الفرنسية خصوصا والغربية عموما.

وإلى جانب هذه التآليف هناك دراسات تاريخية أخرى كثيرة منشورة على صفحات جريدة الشهاب وكذا جريدة البصائر وخاصة في سلسلتها الثانية التي بدات في الصدور مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية.

ونشير هنا إلى أن رجالات الحركة الإصلاحية لم يقتصروا فقط في اهتمامهم بالتاريخ على التأليف والكتابة فيه ، بل تعدوا ذلك إلى توظيفه في بعض الفنون الأدبية مثل المسرح والشعر ، ففي مجال الشعر نجد الكثير من الشعراء وقفوا على أطلال الماضي وكتبوا الكثير من القصائد الشعرية ، استنطقوا فيها التاريخ ووظفوه ، ومن أبرز هؤلاء الشعراء محمد العيد الخليفة الذي يمتاز شعره بكثرة اللفتات التاريخية الرائعة والمؤثرة حيث لا تكاد أي قصيدة من قصائده أن تخلوا منها وهذا دليل على أنه فهم فهما جيدا الرسالة التي يؤديها التاريخ في توعية الشعوب. فنجده يقف في وجه أولئك الذين تجاهلوا تاريخ الجزائر ، وخاصة النخبة المثقفة بالثقافة الفرنسية فيقول للذين سألوا القبور والسهول والفيافي عن الوطن الجزائري فلم يجدوه.

لا تقولـو : هان الجدود فهنـا — ســاء نشئ له بهم سوء ظـن.
في تلمســان في بجاية في تيهــ — رت في القلعة وازدهى كـل فن
يوم كانت مهاجر الشرق والغرب — مثابــا كـعهد وكحصــن.

وآخر ما يمكن قوله في ختام هذه الدراسة ، إن الحركة الإصلاحية الجزائرية قدمت خدمة جليلة للأمة الجزائرية في تلك الفترة التعيسة حيث عرفت الشعب بتاريخه ، وبذلك حفزته للدفاع عنه والعمل على استرجاع حريته التي كان ينعم بها قبل الاحتلال ، وبهذا يمكن القول أن هذه العملية تعد إحدى الأسباب التي أدت إلى ذلك الانفجار العظم الذي حدث ليلة الفاتح من نوفمبر 1954 .

الإحـــالات :

1- عن هذه السياسة أنظر مثلا : أبو القاسم سعد الله : أفكار جامحة (دار الغرب الإسلاميي ، بيروت ، لبنان 2005) ص 78 – 89.

2- رمضان حمود : بذور الحياة ، ص 58-59 .

3- جريدة الشهاب : جويلية 1937 .

4- أنظر المحاضرة كاملة في جريدة الشهاب ولقد نشرت على ثلاث

حلقات في الأعداد : فيفري 1939 ، مارس 1939 ، أفريل .1939

5- أنظر المقال في جريدة الشهاب سبتمبر .1937

6- عبد الرحمان الجيلالي : من وحي ذكرى مرور أربعة عقود سنوية على وفاة العلامة التابعة الشيخ مبارك الميلي (مجلة الثقافة ، مارس أفريل 1984 العدد 80) ص .191

7- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي (دار الغرب الإسلامي ، بيروت 2005) ج 7 ص 416.

8- المرجع نفسه ، ج7 ، ص .417

9- أحمد توفيق المدني : حياة كفاح (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1978).